مشاهد تاريخية

في البحر المتوسط

من اقدم الازمنة الى العصور الحديثة

منذ نحو ثلاثين الى اربعين الف سنة كان البحر المتوسط بطائع شاسعة وحراجاً وبحيرات ويراري . وكانت حيوانات القرس البري والماموث والجاموس تجوسها قطعاناً وارجالاً . وكان انسان الكهف في ذلك العصر — كرومانيون — طويل القامة كبير الدماغ يصيدها بحبه البارعة ويذبحها بأدوات مصنوعة من الصوّان ، فيتخذ من لحومها غذاءه ، ويدوّن انتصاراته عليها في رسوم ينقشها على جدران كهوفه

ثم بعد عشرين الف سنة ، تركت قبائل الأزيل وصف حياتها ومعيشتها منقوشاً على جدران الكهف المعروف بكهف الماس دازيل(١) . كان الجاموس والماموث قد ارتدّا الى الشمال . وعرفت قبائل الازيل عما الى فقص قطعان القرس البري المتنافسة وارجل الأيائل ، بالقوس والنشاب . وكانوا يحيطون جيودها باير من العظم ، ويصيدون السمك في البحيرات والانهر بحرّابات من العظم ايضاً ، ويدخنون خلايا النحل لكي يفوزوا بعسلها . وكان انسان البحر المتوسط قد تعلم قبل هذا العهد الملاحة فجعل يطوف على بحيرات مملكته الواسعة ، في زوارق مصنوعة من القصب ومغطاة بالجلود ، وكان قد تعلم اختلاف الفصول فجعل يقتص ويصيد ويذر في الفصول ما يحتاج اليه

ثم من نحو خمسة عشر الف سنة الى ثني عشر الف سنة ، شقّ الخليج المائي المعروف الآن بمضيق جبل طارق او فاصل بين منطقة البحر المتوسط وحيث الاسفل ، فتدفقت مياه المحيط شرقاً وغمرت البطائح التي كان الماموث يجوسها ، والقرس البري يرتع فيها وتعفن مياهها . ومضت مياهه في تدفقها وتمددها ، حتى وقفت عند جبال الاطلس الصحراوية واسفاد الالب والبرينيه وسلوح الالبين وسلسلة صورس الحقيمة . فتشأت عن ذلك شواطئ ايبوتان المتضرّسة ، وقدم ايطاليا ، وغمرت مياهه بلاداً تكثر فيها الآكام في منطقة جزائره ، ويبقى

---

(١) استخلصنا هذا الفصل من الفصل الاول من كتاب The Dangerous Sea اي «البحر الخطر او البحر المتوسط ومشتقاته» وهو للكاتب البياني الانكليزي جورج سلوكومب ونشرته دار هتشنسن

من الآكام الاَّ قمها وهي جزائر الارخبيل وعجزت عن ان تصير جبالاً أخرى ممتدة من الغرب الى الشرق فكانت كورسيكا وسردينيا وصقلية ومالطة وكريت وقبرص . وكذلك عينت هذه الاسواء المتدفقة سواحل القارات الثلاث اوربا وافريقية وآسيا المحيطة بهذا البحر

وقدر لشواطىء هذا البحر المتوسط بين ثلاث قارات ان تصبح منشأ ومقرًّا لطائفة من أشهر الحضارات في التاريخ المدوَّن ، زهت هنا وعظمت ثم دالت دولاتها ودرست معالمها ، ولم يبقَ منها الاَّ بعض الآثار العجيبة . إن أقدمها متغلغل في جوف الزمان ، بدأت تسفر عنهُ الكتابات المسمارية في ألواح الطين في بلاد الرافدين وأحدثها كأنهُ من بنات الامس القابر على الرغم من الفي سنة تفصلنا عنهُ

الى شواطىء هذا البحر المتوسط ، توافدت جماعات من القراة فأنشأت دولة أو دولة في مصر ، وامبراطورية أو امبراطورية في بابل ونينوى . فها حكم حمورابي في بابل كان الفينيقيون الساميون ، قد رسخوا اقدامهم في صور وصيدا وغيرها من الثغور التجارية العظيمة على سواحل هذا البحر الشرقية . كانت سفنهم بأشرعتها القرمزية ، قد عبرته طولاً وعرضاً . بل كان الفينيقيون قد انشأوا مستعمرات في اسبانيا وبلاد الغال وعلى شاطىء افريقيا الشمالي اسسوا المدينة التي اصبحت فيما بعد عاصمة الامبراطورية قرطاجنة . ثم اجتازوا بأشرعتهم اعمدة هرقل واتجهوا شمالاً محاذين شواطىء اسبانيا وفرنسا الى سواحل بريطانيا . وقبل ان ينقض البحارة اليونانيون والجنود الرومانيون اصول الحضارة الى سواحل هذا البحر الغربية ، كان الفينيقيون قد باعوا سكان تلك السواحل عطوراً وخموراً وأقاويه ، لقاء نحاس اسبانيا وقصدير كورنوال (مقاطعة بريطانيا الجنوبية)(١)

وليس في التاريخ ، ادلة اقوى على زوال الامبراطوريات ، وعدم استقرار الحضارة من الادلة التي يستخرجها الباحث في تاريخ البحر المتوسط . لقد شهدت مياه هذا البحر ، الحضارة الايجية العظيمة وقد بلغت ذروتها وأوج مجدها في ميسيني وطروادة وفي كنوسوس عاصمة الدولة المينوية في كريت حوالي ٢٥٠٠ ق . م ثم جاء اليونان الآريون فدمروها . وشهدت تلك مفاخر حضارة مصرية ترتفع وتنخفض تارة . هو ذا طوائف القراة من قلب آسيا ، تؤسس في بلاد الرافدين حضارة عظيمة الشأن ثم لا تلبث ان تبلى بطائفة اخرى من القراة تقضي على امرها ، فتدمر ما بنت ثم تقيم على انقاض حضارة جديدة . فالامبراطورية الاشورية العظيمة امتد سلطانها وعظمت شوكتها حتى استطاعت ان تطرد من مصر غزاتها الاثيوبيين

(١) حدثنا بعض من أتيحت لنا مباحثهم في انكلترا من سنوات ، ان بعض النباتات الخاصة بمقاطعة كورنوال لا تزال تحمل في ثنايا سماتها بعض الاصول والمقاطع الفينيقية

ولكن لم تلبث حتى سقطت أمام جموع مادي وقارس . هوذا فجر بركليس وعصره يتبلج على اثينا ولكن اسكندر ذي القرنين يشيد امبراطوريته على انقاض الجمهوريات اليونانية . لقد امتدت الامبراطوريات التي أسست على شواطىء هذا البحر ، الى المحيط الاطلنطي غرباً والمحيط الهندي شرقاً . ان مرافئه كثيراً ما ازدحمت بالقوائم والاسلاب من افريقية وآسيا . ومن موانيه المحتشدة ، أقلعت السفن الاولى التي دارت حول رأس الرجاء الصالح ، وشقت الطريق الى العالم الجديد . ان تأثير احدث حضاراته القديمة — اي الحضارة اليونانية والرومانية — لا يزال ماثلاً في علمنا وفننا وقانوننا الى يومنا هذا

ولا ننسى ان شواطىء هذا البحر شهدت قيام اعظم ديانتين في تاريخ العالم ، ديانة السيد المسيح ، وديانة النبي العربي الكريم ، بل كثيراً ما كانت سواحله ميداناً للنزاع بينهما ، وكأن الزمان نفسه وقف عن المسير ، منتظراً ما يسفر عنه هذا النزاع

ان اعظم المعارك البحرية في التاريخ لم تثبت — حتى اوائل القرن العشرين — في مياه البحر المتوسط او في جوارها . ففي سنة ٤٨٠ ق . م . هزم اسطول زركسيس في خليج سلاميس على أيدي اليونان . وفي السنة التالية أجهز هؤلاء على البقية الباقية منه في ميكالي ولم تنقض اربع سنوات حتى غلب اسطول الاتركيين على اليونان في صقلية . بل ان النزاع الطويل بين دويلات اليونان وهو المعروف باسم حرب البلوبونيس (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) كان في الغالب نزاعاً غرضه النزاع السيادة البحرية من الاسطول الاثيني . وما اهلّ نجم الاسكندر ذي القرنين وبدأ سيره الظافر شرقاً حتى وجد في مدوّنة اساطيل صور وصيداء ، خصماً قوياً عسّر زحفه على جيوش داريوس الفارسي . وما بدأ النزاع بين قرطاجنة وروما ، وقد كانت دولتين بحريتين ، احتشد التاريخ البحري للبحر المتوسط بالحوادث الجسام والمعارك الكبيرة . ففي سنة ٣١ ق . م . نشبت اعظم معركة بحرية في العالم القديم هي معركة اكتيوم . وفي المياه نفسها عند خليج نفارينو نشبت اعظم معركة بحرية في عصور المتوسطة (معركة نفارينو سنة ١٨٢٧) وقد ظلت هذه المعركة البحرية اعظم المعارك البحرية في النهاية عشر قرناً من تاريخ المسيحي حتى كانت معركة الطرف الاغر في مستهل القرن التاسع عشر

لقد بدأ حكم نابوليون بانشاء امبراطورية شرقية عظيمة كسحابة صيف . لا يملك أمة الخوف البحرية في البحر المتوسط . ان انتصارات الامبراطور على سفن البادرة ، حتمت ان تكون فيه مياه هذا البحر ، مسرحاً للفرصان ولم تر مياه البحر المتوسط معركة بحرية بعد ان نشبت معركة نافارين التي غلبت فيها اساطيل تركيا ومصر ، سنة ١٨٢٧ ، الى ان كانت سنة ١٩١٤

اذ أفقت الصراعات الاقليمية وتسعى من أساطيل الخلفاء وحاولت التحدي سيادتها عليه

ليس في العالم رقعة من الماء تشبه البحر المتوسط او تقاربه في عدد الشعوب المتصلة بتاريخه ان قدره يبلغ اليوم كما كان يبلغ في العصور الغوابر على العربي واليوناني واليهودي والمصري والايطالي والصقلي والاسباني والتركي والفرنسي . ان الرجال والنساء الذين يعيشون على سواحله يكادون يؤلفون طرازاً خاصاً من الناس ، لاشتراكهم في بيئة واحدة وغذاء متماثل وأعمال ومصالح متشابهة ، ولاختلاط دمائهم بعضهم ببعض خلال عصور طويلة

***

جذب البحر المتوسط القبائل اليه من فجر التاريخ ، القوط والقادمين من الشمال ، والطون من الشرق ، والفاتحين والفرنك والنورمن من الغرب والشمال الاقصى . ولولا فترة قصيرة استولى فيها الاثيوبيون على وادي النيل ، لقلنا ان الزنوج وحدهم دون سائر الشعوب امتنعوا عن الانقياد لسحره . منذ فجر التاريخ شقت سفنه مختلف شعوب استقرت في تركيبها وطبيعة بيئتها بواعث الهجرة وحب المغامرة كالفينيقيين واليونان والقرطاجنيين . وقد كان الاتجاه في التجارة والهجرة حتى القرن الماضي ، الى الغرب ، ولذلك كان مضيق جبل طارق ، وهو باب البحار القديم الى المحيط الاطلنطي ، هدفاً للمغامرين في أيام اليونان والرومان فبلاد غال وايبيريا (اسبانيا) وسواحل افريقية من قرطاجنة الى المحيط ، اغرت الشعوب المزدحمة في شرق البحر ، بخصبها وغناها وسعتها

ثم ان مسالك التجارة والادارة والمواصلات الامبراطورية ، اتجهت في العصور بين الاسكندر والقسطنطين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في خلال قرون المظمة التي تمت سقوط روما وزعزعة . اتجه مركز السيادة في البحر المتوسط الى سواحله الشرقية . فبعد ان تحمت الامبراطورية النهائية القسطنطينية (الاستانة) اصبحت هي وجهتها مركز ، سيرت منه حجوم فاكتسحت مصر وفارس والجزيرة وشمال افريقية الى المحيط الاطلنطي . فأصبحت تونس ، وهي قرطاجنة القديمة ، والجزائر وطنجة وما بينها مسلمين . وأصبح البحر بحر العرب وحاول الصليبيون بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ان يردوا موجة التاريخ المتجهة من الشرق الى الغرب ولكنهم عادوا خاسرين . ولم يحتفظ بالصليبية سوى المدينة المتعادية في البر ، بل شمل البحر كذلك فقد سار بحر البرتغالي ، حتى دار الرجاء الصالح وأخذوا شكله ثم رودس . ولم تبق قبرص في يدي الصليبيين ، بعد تسعة قرون مكثوا فيها أكثر مما يطيقون

وكذلك كانت الدولة النهائية في ايام سليمان القانوني ، قوة بحرية لا تبارى من سواحل

سوريا الى شواطىء اسبانيا . وحاول الامبراطور شارل الخامس ان يخرج الفرسان من تونس والجزائر . فرتدَّ خائباً من الجزائر بعد ان اقام في تونس حامية استطاعت التخصم في ملك ابنه فيليب . اما جزيرة مالطة التي تراجع اليها فرسان مار يوحنا الاورشليمي ، فحوصرت حصاراً طويلاً . وكذلك ظلت سيادة العثمانيين البحرية على البحر المتوسط ، الى أواسط القرن السادس عشر ، عند ما نشبت معركة ليبانتو ، فنازت فيها أساطيل أسبانيا

***

ولو شاءت أسبانيا حينئذٍ او لو عرفت ان تغتنم الفرصة ، لكانت السيادة في البحر المتوسط لها . ولكن امراء البحر الاسبانيين كانوا شديدي الانشغال ، بعد معركة ليبانتو ، بحماية السفن المحملة بكنوز جزائر الهند ، والسفن الناقلة للجنود الى هولندا الاسبانية ، والسفن التجارية الآتية من هولندا الى أسبانيا . وشغلهم علاوة على ذلك عزمهم على مناوأة بحارة الملكة اليزابث بعد ان وجدوا البحر مسرحاً لما في نفوسهم من حب المغامرة والتوسع . كذلك حال الاستعداد للحملة العظيمة التي رغب فيليب الثاني ملك أسبانيا في تجريدها على انكلترا ، دون التفاته الى البحر المتوسط . فاستغرقت كلَّ تفكيره ، واستنفدت معظم ماله ، فكأن البحر الذي يصل شواطىء أسبانيا وايطاليا ، وبؤمن مواصلاته الى جنوى ونابولي وصقلية ، كان خارجاً عن نطاق تصوره الحربي ، او نطاق مطامعه الواسعة . لم يكفه ما ورثهُ عن والده من سيطرة والقاب وضحَّى بثمار الانتصارات التي أحرزها أخوه « الدون جون » في البحر المتوسط ، لانهُ كان يطمح الى السيطرة سيطرة روحية وعسكرية على شمال اوربا

ولكن هزيمة أسطوله في تلك المعركة البحرية العظيمة عند شواطىء هولندا ، في سنة ١٥٨٨ عندما اشتبك أسطولهُ بأسطول الملكة اليزابث الانكليزية في معركة الارمادا الاسبانية المشهورة ، بدَّد هذا الحلم الجميل . ثم تلا ذلك تدمير البقية الباقية من أسطوله على شواطىء انكلترا وايرلندا الجنوبية . فأصبحت اعظم دولة بحرية في البحر المتوسط في ذلك العهد ، وهي لا تستطيع ان تشقَّ عبابهُ بسفنها خشية الفرسان ، مع ان ذلك البحر كان في قبضتها لم تُدنَّس

ثم جاء زمان عى هذا البحر ، والسيادة فيه ليست لدولة من الدول . ذلك أن قوة الدولة العثمانية كانت قد ضعفت ومعها قوة البندقية ، وأصبح البحر مسرحاً للفرسان وضلَّ كذلك الى خاتمة القرن الثامن عشر . عندما ظهر أثر القوة البحرية الانكليزية في تأمين مواصلاته . ولكن الأسطول الانكليزي لم يتمَّ لهُ السيادة على هذا البحر ، الا بعدما غلب نابوليون على أمره ثم تطورت أحواله قبيل الحرب العالمية الماضية وفي اثنائها وما تلاها من الاحداث الى ان نشبت هذه الحرب وهو موضوع يقتضي بحثاً خاصًّا